١٦٥٣٦

التفسير

تفسير قصة شعيب عليه السلام

— ٨ —

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثناك فيما سبق أن رسول الله شعيبا عليه السلام شرع يبين لقومه الأمور التى يجب عليهم أن يَرَوْها ليَصِلوُا بعد رؤيتها والتدبر فيها الى العلم الصحيح واذ ذاك تتجلى لهم حقيقةُ رسولهم الكريم ورسالتِه الالهية ويعلمون أنهم قد ارتكبوا بما زعموه اثما عظيما .

كذلك بينا لك أمراً من تلك الأمور التى لَفَتَهم اليها ، وهو البينة من ربه عز وجل ، وسنشرع الآن فى بقيتها بتوفيق الله تعالى فنقول :

الأمر الثانى : هو ما ذكره عليه السلام فى قوله (وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً) . الرزق هو النصيب الذى يناله الانسان من وسائل المعيشة فى هذه الحياة وهو نوعان ، رزقٌ قبيح وهو المحرم الذى يناله الانسان من طريق محرّم غير مشروع ورزقٌ حسن وهو الحلال الذى يناله من الطريق الحلال المأذون فيه .

ثم انه عليه السلام أعلمهم بقوله (وَرَزَقَنِى) أن الله تعالى قد تفضل عليه بالرزق كما أعلمهم أيضاً بقوله (مِنْهُ) أن هذا الرزق انما هو من الله تعالى وحده لم يُجْرِه على يد أحد من الخلق حتى يكون لغير ربه عز وجل فضل عليه أو مِنّة كما فى عطايا الأمراء وهِبات الأغنياء وأنّ هذا الرزق أيضاً رزق حسن جميل .

ثم أن اطلاق حُسْن هذا الرزق يعمّ حسنَه فى الكمّيّة والمقدار فكان لذلك رزقا

كثيراً واسعاً ، كذلك يعمُّ حُسْنَه فى الـكيفية والصفة حتى صار رزقاً لا قبح فيه ولا تبِعَة ولا شائبةَ شبهةٍ .

فقد ظهر لك أن قوله عليه السلام لقومه (وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) قد تضمن عِدَّةَ نِعَم عظمى هى أنه مرزوق لا محروم وأن الفضلَ والمِنَّةَ عليه فى هذا الرزق انما هما لله لا لأحد من العباد وأنّ هذا الرزق جليل القدر جميل العاقبة لا تَبِعَةَ فيه ولا عتابَ عليه .

فهو عليه السلام قد أُسبِغَتْ عليه هـذه النعم الجزيلة مع أنه اذا كال أو وزن أَوْفَى المـكيالَ والميزانَ بالقسط ولم يَكْسِبْ إثمـا من الآثام التى كَسَبوها على أنفسهم شراهةً وطمعا وأكلا لأموال الناس بالباطل .

أفلم يكن من الواجب على أهـل مدين حينئذ أن يَرَوْا ما عليه رسولُهم فى شأن رزقه هذا فيعلمُوا صدقَه فيما دعاهم اليه وأنه انما بلَّغهم عن ربهم فيؤمنون به ويسلـكون طريقته ويتبعون سنته وينتهون عن التطفيف والبخس وسائر ما اجترحوه من السيئات فى جنب الله تعالى وجنب عباده وحينئذ يرزقهم الله رزقا حسناً ويحييهم حياة طيبة مِثْلَ رسولهم ؟

اذا علمت أن رزقه عليه السلام كان رزقاً حلالا رغدا محموداً علمت أيضاً أن قوله (وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) ينظر الى معنى قوله فى آية أخرى (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) لأن الله تعالى قد تفضل عليه وكَفَل له رزقَه وأجرَه الحسنَ كما تفضل بذلك أيضاً على سائر رسله لِتَعلَمَ كلُّ أمة ان رسولَها لم يَدْعُها الى ما دعاها اليه مُسْتَجْدِيا أو محتالا أو متكسِّبًا بدعوى الرسالة .

ولـما كان الحديث فى شىء مذكرًا بنظير ذلك الشىء ساغ لنا أن ننبه المسلمين على أن كل من تَزَيَّا بزِيِّ الصلاح وتردَّى برداء التقوى ثم جعل ذلك وسيلة يخدع بها الناسَ ويغرّهم فى دينهم وحِبالةً يتصيَّد بها أموالَهم ويسلُب ما فى أيديهم كل أولئك طوائفُ جهّالٌ قد اتخذوا دينَ الله هُزُوًا وانحرفوا بأتباعهم عن صراط الله المستقيم واستحلوا أكلَ أموالِ الناس بالباطل واحلوا أنفسهم واتباعَهم دارَ البَوار فضلوا وأضلوا (وَلَيَحْمِلُنَّ

أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ).

الأمر الثالث : هو قوله عليه السلام (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ). قد عرفتَ مما تقدم الأشياء التى نهاهم عنها فاما المخالفة الى الشىء فهى أن يقصد الأنسانُ الشىءَ ويتوجهَ اليه ليفعله هو بعد أن ينهى غيرَه ويصرفَه عنه ليستقلَّ هو بفعله ويستأثرَ وحده بمنفعته المزعومة . فهو عليه السلام يبين لهم بهذه المقالة أنه مايريد بنهيه اياهم عما نهاهم عنه أن ينصرفَ اليه وينفردَ بفعله بعد أن يتركوه ليختصَّ بمزاياه وفوائده التى توهموها ، والدليل على أنه مايريد ذلك أن الله جل ثناؤه قد رزقه من لَدُنْه رزقا حسناً لا يستطيعون الى إنكاره سبيلا ، فحاشاه بعد ذلك أن يخالفهم الى ما نهاهم عنه فانك لا تجد عاقلاً مَّا قد رزقه الله رزقاً حسناً حلالا طيباً كَفافاً ثم يَعمِدُ الى الاستزادة من طريق محرم ذميم . فاذا كان ذلك لايقع من عاقلٍ مّا فما ظنُّك برسول كريم على بينة من ربه وقد رزقه من لَدُنْه رزْقا حسناً وهو رسول الله شعيب عليه السلام .

الأمر الرابع : هو قوله عليه السلام (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) بعد أن نفى عليه السلام عن نفسه تلك الارادة القبيحة وهى مخالفتهم الى ما نهاهم عنه أثبتَ الارادةَ الحَسَنةَ وشرَحها لهم شرحا اذا عقلوه علموا أنها ارادة صالحة وأن ثمراتِهـا الطيبةَ انما هى عائدة عليهم وهم المنتفعون بها .

يقول لهم عليه السلام : ما أريد بنهيى لكم عن السيئات ولا بأمرى لكم بالحسنات الا اصلاحَ أحوالـكم الدنيويةِ والأخرويةِ وتقويمَ ما اعوجَّ من شؤونكم فى معاملة ربكم ومعاملة عباده ثم أعلمهم أن هـذا الاصلاحَ الذى يريده لهم انما هو الاصلاح الـكامل الشامل لجميع منافعهم لا الاصلاحُ فى الجملة أيًّا كان وهذا هو قوله (مَا اسْتَطَعْتُ) أى ما دمتُ مستطيعاً له فلا أُضيع وقتا أتمـكن فيه من الاصـلاح ولا آلُو جُهْداً فى بذل نصيحتى ووعظى اياكم .

لعلك قد فطنتَ الى أن هـذه المقالة الرابعة وهى (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا

استطعت) كما شرحتَ ما أراده من النهى كذلك شرحتَ ما أراده من الأمر فان الاصلاح يترتب على أمره ونهيه معافا لارادة هنا شاملة لهما أما فى المقالة الثالثة فهى خاصة بارادة النهى بدليل قوله عليه السلام (إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

الأمر الخامس : هو قوله عليه السلام (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ) توفيقُ الله جل ثناؤه للعبد هو أنه يرشده الى طريق الحق والصواب ثم يُمدُّه بمعونته ويَحُوطُه بحفظه فى أثناء سيره فى ذلك الطريق الى أن يبلغ نهايته ونظيرُه أنْ ترشدَ غيرك الى طريق السلامة ثم تسيرَ معه فيه حتى يصل الى غايته .

أخبر عليه السلام قومه أنه مايريد الا اصلاحهم جُهْدَ استطاعتِه ثم أخبرهم بعد هذا أن توفيقه لما أراد وتسديدَه للصواب فى جميع شؤونه التى منها اصلاحهم واصابتَه الحقَّ الذى يرضاه الله سبحانه انما هو بالله القدير وبحسن تأييده ومعونته وحياطته فاذا ما وفقه الله تعالى لذلك استطاع أن يصلحهم ويقيمهم على الصراط السوى فهو عليه السلام يُعلِّمهم أن الأمور جميعها فى جملتها وتفصيلها راجعةٌ الى الله وحده لاشريك له فيها ولا مزاحم كما قال عز سلطانه (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) .

أخبرهم بهذا ليعلِّمهم أن العبد مفتقر كل الافتقار الى ربه لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً الا بمعونته سبحانه وليبينَ لهم أن أصلاحهم مستند فى الواقع وراجع الى الله الذى بيده مَلَكوتُ كلِّ شىء وما شعيبٌ عليه السلام الا مَظْهَرٌ من مَظاهر أفعال الله تعالى ووسيلةٌ من الوسائل التى قضتْ بها حكمتُه البالغةُ .

الأمر السادس : هوقوله عليه السلام (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) قد مضى لنا القولُ فى معنى التوكل فى العدد الأول فارجع اليه اذا شئت .

أخبرهم عليه السلام أنه يعلَمُ ان توفيقه لما أراد انما هو فيض يُفيضُه الله تعالى عليه ثم أخبرهم هنا بأنه عامل بذلك العلم ولهذا التجأ اليه سبحانه واتخذه وكيلا فيما يأتى ويَذَر ومن ذلك اصلاحُه لهم بقدر استطاعته قاصراً توكله على ربه جلت قدرته مُعرِضا عن الاستظهار والانتصار بغيره من الخلق لأنهم (لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)

الأمر السابع : هو قوله عليه السلام (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) الانابة الى الله تعالى التى هى وصف المؤمنين الأخيار هى أن يَرجعَ العبدُ رجوعا بالفعل لا باللسان فى وقت أمنِه وسلامتِه مختارا الى الله سبحانه يقول لهم : انى أرجِعُ بالفعل فى كل شؤونى الى ربى جل ذكرُه مختاراً طائعا اذا كنتُ فى نعمة وخيرمنه وفاءً بحق فضله علىَّ وشكراً له على نعمته فأذكرُه وأعرفُه فى وقت يُسْرى ورَخائى . ليَذكُرَنى ويعرِفَنى وقت عسرى وبلائى . وفى هذا نَعْىٌ على أولئك السفهاء الكاذبين الذين اذا كانوا فى نعمة ويسر وصحة وأمنٍ نَسُوا اللهَ وكانوا من الغافلين ، واذا نزلتْ بهم كارثة من فقر أو عسر أو مرض أو خوف تذكروا ربهم وجأَرُوا ضارعين اليه ثم اذا كَشَفَ عنهم ضُرَّهم مَرُّوا كأنهم لم يَدْعُوا ربهم الى ضُرٍّ مَسَّهم .

وفى القرآن الكريم كثير من الآيات فى شأن أولئك الغافلين عن ربهم الكافرين بنعمه عليهم فمنها قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) ومنها (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) .

واجمالُ ماسبق أنه عليه السلام شرح لهم ما أراده من نهيه وأمرِه لهم وهو إصلاحُ شؤونهم وتقويمُ أمورهم وأنه مايريد مخالفتهم الى ماناهم عنه ايثارا لنفسه عليهم كذلك شرح لهم بقوله (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ) الآيةَ التوحيدَ الخالصَ الذى يجب على العباد جميعاً أن يَدينُوا به لربهم الذى خلقهم ثم رزقهم ثم يُميتُهم ثم يُحييهم ثم اليه يُرْجَعون . هذا ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه كلامه عليه السلام من محاسنة قومه ومجاملته لهم فى محاوراته معهم ورفقِهِ بهم فى تليين قسوة قلوبهم واستنزالهم عما أصَرُّوا عليه من معاندته وجمودِهم على بغيهم وطغيانهم مع الاخلاص وبذل الجهد الى غيرذلك مما لا يستطيع الاتيانَ بمثله الا رسولٌ كريمٌ علّمه الله من لَدُنْه علما وأدَّبه تأديبَ النبيين والمرسلين .

هكذا عاملهم عليه السلام ولكنه ما آنسَ منهم الا نفورا منه واعراضا عنه وتكذيبا

له لهذا انتقل بهم سالكا سبيل التخويف والتحذير فقال (وَيَاقَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ).

صدّر عليه السلام تحذيره بتذكيرهم بما بينه وبينهم من صلة القومية والقرابة التى توجب عليه الاخلاص فى نصحهم وبذل الطاقة فى اصلاحهم ثم شرع يُقيم وجوههم ويَلفِتُ من نفوسهم الى ما جرى على الأمم الخالية عسى أن يزدجروا ويتعظوا بهم فلا يَحِيقُ بهم مثلُ ما حاق بتلك الأمم من العذاب الذى استأصلهم حتى جعلهم أثرا بعد عَيْنٍ وصاروا حصيدا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا بالأمس.

يقول عليه السلام: ياقوم لا يكن شقاقُكم لى ومعاداتكُم اياى سبباً فى أن يَجُرَّ عليكم جريمةَ الكفر ويُوقِعَكُم فى جريرة التكذيب بدينه وبرسوله فيصيبكم من العذاب والتنكيل بكم مثلُ ما أصاب قوم نوح عليه السلام من الغَرَق وفيهم يقول الله تعالى (فَكَذَّبُوهُ[1] فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا. إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ[2]).

أومثل ما أصاب قومَ هودٍ عليه السلام من الريح الصَّرْصَرِ[3] العَاتِيَة[4] كما قال سبحانه (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً[5] فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى[6] كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ[7] نَخْلٍ خَاوِيَةٍ[8] فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ).

أو مثلُ ما أصاب قومَ صالح عليه السلام من الصيحة والرجفة[9] كما حكاه تعالى فى شأنهم (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[10] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا[11] فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً[12] لِثَمُودَ) (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

(١) اى سيدنا نوحا عليه السلام (٢) عميا عن الحق (٣) شديد الصوت (٤) القوية الشديدة عليهم مع قوتهم وشدتهم (٥) متتابعات متواليات (٦) مطروحين هالكين (٧) أصول (٨) ساقطة فارغة (٩) ارتجاج أرضهم وزلزالها (١٠) هامدين خامدين موتى لاحراك بهم (١١) كأنهم لم يكونوا مقيمين فيها (١٢) هلاكا وفناء

ثم انه بعد أن حذرهم ما أصاب تلك الأمم الثلاث ختم تحذيره بما أصاب قوم لوط عليه السلام فقال (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) أى إنْ لم تعتبروا ياقوم بتلك الأمم الثلاث ولم تتعظوا بما صبّه الله عز شأنه عليهم من أنواع العقاب والتدمير وزعمتم أن أعمالهم وزمانهم ومكانهم بعيدة منكم لا تكفيكم فى الاعتبار والاتعاظ بهم فاعتبروا بهذه الأمة قوم لوط عليه السلام فانهم شعبٌ[1] من الشعوب المهلكة وفريقٌ قريبٌ منكم ليس ببعيد.

قَرُبَ منكم زمانُهم فلا تستطيعون ان تدَّعُوا نسيانَ ما حلَّ بهم من مصائب كفرهم كما قَرُبَتْ أيضا منكم ديارُهم فسيروا فيها لترى أبصارُكم (اذا عَمِيَتْ بصائركم) جزاء المكذبين وكذلك قَرُبَتْ أعمالُهم من أعمالكم فانكم واياهم معاً قد فتنتم[2] أنفسكم وتربَّصتم[3] وارتبتم[4] وغرَّتكم الأمانىُّ[5] وجادلتم بالباطل فى الحق بعدَ ما تبين وحاربتم الله ربكم بارتكاب المعاصى وكذبتم الرسل الصادقين المخلصين فكما أنكم جميعا سواسيةٌ فى هذه الجرائم والمخازى كذلك تكونون سواسيةً فى الجزاء على شرور أعمالكم بالاهلاك والإسحات من الأرض بالعذاب الأليم فى الدنيا ولَعَذابُ الآخرةِ أخْزَى وأشدُّ وأبقى.

وجملة المعنى أن أعمالهم جميعاً قد اتحد جنسها وهو الكفر وارتكاب المآثم وأن تخالفت[6] فى بعض الأنواع.

حسن منصور

وكيل دار العلوم العليا سابقاً

(١) اشارة الى وجه افراد لفظ (بعيد) دون أن يقول (ببعيدين) (٢) صرفتموها عن الايمان (٣) ترقبتم الشر للمؤمنين (٤) شككتم فى دين الله وفيمن جاء به (٥) ماتمنيتموه من هزيمة الحق وانتصار الباطل (٦) ولهذا التخالف فى الأنواع عبر بما يفيد القرب لا الاتحاد بالنسبة الى الاعمال.